الفصل الثالث عشر

برقية

في يوم غائم من أيام شهر نوفمبر/تشرين الثاني، جلست الفتيات بعد الظهيرة وهن في مزاج سيئ. بعد ذلك عادت مارمي إلى المنزل، وحضر لوري وهو ما أدخل شيئًا من البهجة إلى نفوسهن.

سألهن لوري: «سأصطحب السيد بروك إلى المنزل بالعربة، هل تريد أي منكن أن تأتي معي؟»

قالت بيث وجو إنهما يودان الذهاب معه.

سأل لوري مارمي: «هل ثمة شيء يمكنني القيام به لك يا سيدتي؟»

قبل أن تجيبه مارمي، رنَّ جرس الباب، ودخلت هانا إلى حجرة المعيشة وعلى وجهها نظرة حائرة. قالت: «لقد وصلت برقية من تلك البرقيات المروِّعة يا سيدتي.»

أثناء قراءة السيدة مارمي البرقية بسرعة، شحب وجهها، وارتمت فوق مقعدها. ركض لوري لإحضار كوب ماء، وقرأت جو: «السيدة مارمي، زوجك مريض للغاية. احضري فورًا. إس هايل، مستشفى واشنطن.»

تبدَّل حال العائلة كلها فجأة، وصدمت الأنباء المفزعة الجميع. ضمت السيدة مارمي بناتها إليها بقوة، وقالت: «سأذهب على الفور، لكن قد يكون الأوان قد فات!»

بدأت أصوات النحيب تملأ الغرفة. أول من استفاق من الصدمة كانت هانا التي جلست وقالت: «كفى بكاءً! سأذهب لتحضير أغراضك يا سيدتي.» قالت مارمي في هدوء: «إنها محقة يا فتيات، لنهدأ حتى أستطيع التفكير.»

بذلت كل فتاة ما بوسعها كي تبقى هادئة. كانت مارمي لا تزال شاحبة الوجه، لكنها وقفت في ثبات. فكرت دقيقة، ثم قالت: «أين لوري؟»

قال وهو يسرع من الغرفة المجاورة: «ها أنا ذا، كيف لي أن أساعدك؟»

قالت مارمي: «رجاءً أرسل برقية تخبرهم فيها أنني سأحضر على الفور، وأن القطار التالي المتجه إلى واشنطن يغادر في الصباح الباكر.»

أومأ لوري برأسه، وقال: «أهناك شيء آخر يمكنني فعله؟ العربة جاهزة، يمكنني أن أذهب إلى أي مكان أو فعل أي شيء!» بدا لوري مستعدًا للوصول إلى القمر إذا ما استدعى الأمر.

أجابته مارمي: «لعلك تبعث برسالة إلى العمة مارش! يا جو أحضري لي قلمًا وورقة.»

فعلت جو ما طلبته أمها، شعرت بالعجز الشديد لأنها تعلم أنها ستقترض ثمن تذكرة القطار من العمة مارش. وتمنت لو أنها استطاعت أن تأتي بمال إضافي.

اندفع لوري نحو الباب الأمامي وهو يحمل رسالة في يده، ومضى في طريقه وكأن حياته تعتمد على ذلك الأمر. سرعان ما طلبت مارمي من بناتها القيام ببعض الأشياء، فطلبت من بيث إحضار زجاجات الخمر العتيقة من منزل السيد لورانس من أجل أبيها. حضر الرجل العجوز مع بيث، وأحضر كل ما رآه مناسبًا لشخص مريض. بل إنه سأل السيدة مارمي أن يرافقها في رحلتها الطويلة، لكن مارمي علمت أنه لن يتحمل الرحلة الطويلة، فشكرته وأخبرته أنها ستكون بخير وهي وحدها، مع أنها لم تكن تشعر بذلك. لم يفكر أحد في الأمر مرة أخرى بعد أن ودعهن السيد لورانس وغادر على عجالة إلى أن فتحت ميج باب المنزل لتجد السيد بروك.

قال وهو خافض عينيه البنيتين الجميلتين: «حضرت إلى هنا لأسأل هل ستسمح لي والدتك بمرافقتها إلى واشنطن.»

ابتسمت ميج ابتسامة دافئة، وقالت: «كم أنت طيب القلب! سيخفف ذلك عن أمي كثيرًا، شكرًا لك.»

عاد لوري بالمال من عند العمة مارش. حاولت الفتيات إنجاز الأمور والانشغال بالعمل في ظل تلك الظروف الصعبة. حاولن جميعًا عدم التفكير في أبيهن وحبسن دموعهن. ومع انقضاء الظهيرة، لاحظت ميج اختفاء جو. وأخيرًا وصلت جو، كان على وجهها تعبير غريب، ثم أعطت أمها حفنة من الدولارات، وقالت: «خذي يا أمي، هذه مساهمتي.»

شهقت مارمي، وقالت: «جو! من أين لك بخمسة وعشرين دولارًا؟»

أجابتها: «لا تقلقي يا مارمي، لقد اكتسبتها بطريق مشروع. فقد بِعتُ ما لدي.» ثم خلعت جو قبعتها وكشفت عن شعرها الطويل المتموج وقد قصته!

صاحت مارمي: «ماذا حلَّ بشعرك الجميل؟»

قالت جو: «لقد بِعتُه، سيناسبني هكذا، كان يُشعرني بالغرور الشديد.»

تنهَّدت إيمي، وقالت: «لقد كان أجمل ملامحك! ما الذي جعلك تفعلين ذلك؟» لم تستطع إيمي تصور تلك التضحية.

– «كنت أود مساعدة أبي بأي وسيلة، وهذا كل ما استطعت فعله.»

نظرت السيدة مارش في حب إلى ابنتها، وقالت: «شكرًا لك يا عزيزتي.»

الفصل الرابع عشر

الأمل والإيمان

لم تتحدث الشقيقات الأربعة كثيرًا صباح اليوم التالي عندما استيقظن في الصباح الباكر قبل موعدهن المعتاد في يوم بارد وغائم. تناولن الفطور في هدوء، كانت وجوههن بائسة أثناء انتظارهن للعربة التي ستقل أمهن إلى محطة القطار. أمرت السيدة مارمي بناتها ألا يقلقن وأن يحتفظن بالأمل وأن يجتهدن في أعمالهن. تعاملت الفتيات مع نصيحة أمهن بجدية، وعانقنها للمرة الأخيرة قبل أن ترحل هي والسيد بروك.

عندما توارت العربة عن أنظارهن، عادت الفتيات إلى المنزل، وتذكَّرن شعارهن الجديد: «الأمل والعمل بجدية.»

عادت جو وميج إلى العمل، وجلست إيمي وبيث بالمنزل لمساعدة هانا. وجدت الفتيات شيئًا من الراحة في العمل، وكذلك الأنباء التي وردت عن أبيهن كانت تبعث على الطمأنينة بقدر كبير. كان السيد بروك يبعث برسالة قصيرة كل يوم، واتضح من الرسائل أن أبيهن يتعافى. مرت الأيام والخطابات تتبادل بين المستشفى في واشنطن ومنزل عائلة مارش، وأصبحت الخطابات حبل النجاة في تلك الأيام العصيبة.

مرت عشرة أيام منذ رحيل مارمي إلى واشنطن. على الرغم من سعي الفتيات جاهدات إلى العمل بنصيحة أمهن «الاحتفاظ بالأمل والعمل بجدية»، حصلن على الكثير من أوقات الراحة أيضًا. في ذلك الصباح، ذكَّرت بيث ميج وجو بأن تذهبا إلى منزل أسرة هامل، فقد أوصتهن أمهن بالاعتناء بتلك العائلة التعيسة في غيابها. كانت ميج متعبة للغاية ولم تستطع الذهاب، وكانت جو قد عادت إلى المنزل قادمة من منزل العمة مارش وتشعر أنها أصيبت بالبرد.

قالت جو: «لماذا لا تذهبين أنت يا بيث؟ ستستمتعين بالسير إلى هناك.»

أجابتها بيث: «أشعر بألم في رأسي وأني متعبة للغاية. ظننت أن واحدة منكما ستذهب إلى هناك اليوم.»

اقترحت ميج أن ينتظرن إيمي، لكن إيمي لم تعد إلى المنزل. سرعان ما نسيت ميج وجو أمر عائلة هامل، لذا خرجت بيث في هدوء في الجو البارد، ولم يلحظها أحد عندما عادت إلى المنزل أيضًا، لأنها اتجهت إلى الطابق العلوي، ودخلت غرفة أمها، وأغلقت الباب على نفسها.

دخلت جو الغرفة فوجدت أختها الصغيرة في حالة يرثى لها وعيناها حمراوان. صاحت: «النجدة! ما الأمر؟»

قبل أن تقترب جو منها، مدت بيث يدها، وسألتها: «لقد أصبتِ بالحُمَّى القرمزية من قبل، أليس كذلك؟»

أجابتها جو: «أجل، عندما أصيبت بها ميج، كنا أطفالًا وقتها، لماذا؟»

أخبرت بيث جو وهي تنتحب أن أحد أطفال أسرة هامل مات في حِجرها، وأخبرها الطبيب أنه مات بسبب إصابته بالحُمَّى القرمزية، وأخبر بيث بأن تتوجه إلى المنزل على الفور وتتناول الدواء لأنه من الممكن أن تمرض أيضًا.

عانقت جو أختها، وقالت: «كلا، لن تمرضي، إذا مرضت، فلن أسامح نفسي أبدًا.» تحسست جبهة بيث، وقالت: «يا بيث! كم أخشى أن تمرضي، لقد ذهبتِ إلى هناك كل يوم طيلة هذا الأسبوع.» صمتت جو دقيقة، وضمت يدي بيث بين يديها وقالت: «يجب علينا استدعاء هانا، ستعلم ما الذي يجب فعله.»

طلبت هانا من جو أن تحضر الطبيب على الفور. حضر الدكتور بانجز، وقال إن بيث تعاني أعراض الحُمَّى بلا ريب، على الرغم من أن حالتها ليست خطيرة. قررت الفتيات أن تنتقل إيمي، التي لم تصب بالحُمَّى من قبل، للعيش مع العمة مارش. لكنها رفضت الذهاب إلى أن وعدها لوري بأن يزورها يوميًّا، فوافقت. ومكثت جو بالمنزل لتعتني ببيث، لأن إيمي سترعى عمتهن الآن.

كادت إيمي تجهش بالبكاء عندما دخلت حجرة المعيشة بمنزل العمة مارش، فجذب لوري الببغاء بولي من ذيله، فضحكت إيمي. وما إن أصبحت وحدها، حتى فكرت في نفسها: «لا أظن أنني سأحتمل الأمر، لكنني سأحاول.»

الفصل الخامس عشر

أيام عصيبة

أصيبت بيث المسكينة بالمرض بالفعل، واعتنت هانا والطبيب بها جيدًا. جلست ميج بالمنزل لتعتني بأمور المنزل. وجهت هانا تعليمات صارمة للفتاتين بألا تخبرا أمهما بأي شيء. فقد تعرَّض والدهن لانتكاسة، ولم ترد هانا أن يعلم شيئًا آخر يؤثر على شفائه. كانت متيقنة أن بيث ستتعافى عما قريب.

مرت تلك الأيام العصيبة على جو وميج وشعور الحزن يملأ قلبيهما، تخشيان التفكير في العيش دون شقيقتهما الحبيبة. كانت بيث برقتها وطبيعتها المعطاءة تأسر قلوب الناس من حولها.

تعافت بيث فترة قصيرة تمكنت خلالها من إرسال رسائل حنونة إلى إيمي. لكن سرعان ما انقضت تلك الفترة القصيرة، ودخلت في فترات طويلة من التدهور. كانت تهذي بكلام غير مفهوم أو تستغرق في سبات عميق. بدأ الطبيب يحضر مرتين لزيارتها، وسهرت هانا بجوارها معظم الليالي. ولم تتركها جو لحظة واحدة، وكتبت ميج برقية تحسبًا للظروف.

هلَّ شهر ديسمبر/كانون الأول حاملًا البؤس والرهبة. عندما حضر الطبيب في صباح ذلك اليوم، أخبر هانا بأن تبعث رسالة تطلب فيها من السيدة مارمي الحضور.

هرعت جو إلى مكتب البريد عندما عادت إلى المنزل، وحضر لوري ومعه رسالة من السيد بروك يقول فيها إن أبيهن يتعافى مجددًا. لاحظ لوري على الفور وجه جو المكفهر الحزين، فسألها: «ماذا بك؟ هل حالة بيث سيئة؟»

أومأت جو موافقة: «لقد أرسلت خطابًا لأمي أطلب حضورها.»

– «هل كانت هذه فكرتك؟»

– «كلا، كان ذلك بناء على طلب الطبيب.»

بدا لوري مرتاعًا: «إن حالتها ليست بذلك السوء، أليس كذلك؟»

قالت جو وهي تنتحب: «نعم، إنها لا تعرفنا، لم تعد تشبه حبيبتي بيث، ومع غياب أمي وأبي لم أعد أستطيع تحمل الأمر.» انهمرت الدموع فوق وجنتي جو.

أمسك لوري بيدها، وهمس في أذنيها: «أنا هنا إلى جوارك، ضميني إليك يا جو.»

– «شكرًا يا لوري، أنا أفضل حالًا الآن.»

قال بصوت خافت: «تمسكي بالأمل فيما هو أفضل، ستحضر أمك عما قريب.»

انهمرت الدموع على وجنتيها من جديد: «آه يا لوري! إن بيث هي صوت الضمير لِيّ ولا أستطيع التخلي عنها! لا أستطيع!»

كبت لوري دموعه، وقال: «لا أظن أنها ستموت، فهي طيبة للغاية، وكلُّنا نحبها كثيرًا.»

أنّت جو، وقالت: «دائمًا يموت الطيبون والمقربون!» لكنها توقفت عن البكاء.

قال لوري: «انتظريني هنا، سأجعلك تشعرين بتحسن في دقيقة.» عندما عاد، كان يحمل معه كأسًا بها خمر.

أمسكت جو بالكأس، ورفعتها، وقالت: «لنشرب نخب شفاء بيث العزيزة!» ارتشفت من الكأس ببطء، وقالت: «أنت طبيب ماهر يا لوري، وصديق طيب أيضًا. كيف لي أن أرد لك الجميل؟»

– «ليس ذلك بالأمر الضروري، هذا إلى جانب أنني أحمل مفاجأة إليك.»

– «ماذا؟»

ابتسم لوري: «لقد بعثت ببرقية إلى أمك بالأمس، ورد بروك ببرقية يقول فيها إنها ستحضر إلى المنزل على الفور. ستكون هنا الليلة!»

قفزت جو من مقعدها، وعانقت لوري. «آه يا لوري! أنا في غاية السعادة.» ضحكت، ورقصت، وضمت إليها الفتى المرتبك. ربَّت لوري على ظهرها، ثم قبَّلها قبلةً خجولةً أعادتها إلى الواقع مرة أخرى.

قالت: «أنا آسفة، لم أستطع منع نفسي من معانقتك، لا تعطني المزيد من الخمر! فهو يجعلني أتصرف على نحو طائش.»

ضبط لوري ربطة عنقه: «لا تقلقي، ليس لدي أي مانع. سأذهب لإحضار أمك. قطارها سيصل الساعة الثانية صباحًا.»

ابتسمت جو: «حقًّا، كيف يمكن أن أعبر عن امتناني لك يا لوري؟»

مازحها قائلًا: «يمكنك معانقتي مرة أخرى، فأنا أحب ذلك.»

– «كلا، شكرًا لك، عد إلى المنزل واسترح. ستكون ليلة شاقة، باركك الله يا لوري! باركك الله!»

بدا أن موجة من الفرح غمرت أرجاء المنزل لحظة. كان الجميع سعداء بحضور مارمي أخيرًا، باستثناء بيث التي كانت ترقد في فراشها في غيبوبة. ظلت ميج وجو بجوارها، لأنه لم يكن من المتوقع أن يحضر الطبيب قبل منتصف الليل إذا طرأ أي جديد.

انتظر الجميع، ولم ينم أحد. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا عندما دخلت ميج حجرة المعيشة بوجه شاحب. دار في خلد جو الفكرة المروعة: «ماتت بيث، وميج خائفة أن تخبرني بذلك.» اندفعت جو إلى الطابق العلوي بجوار فراش بيث. كانت حمرة الحُمَّى ونظرة الألم قد اختفت من وجه بيث الطفولي، بدت نائمة في سكينة تامة، انحنت جو فوق أختها الغالية وقالت: «وداعًا يا حبيبتي، وداعًا.»

استيقظت هانا من غفوتها على كلام جو الممتزج بالدموع، وهرعت إلى فراش بيث وتحسست جبهتها، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «لقد انقشعت الحُمَّى! إنها تنام نومًا طبيعيًّا. حمدًا لله!»

سرعان ما أحضرت الفتاتان دكتور بانجز الذي أكد ما قالته هانا. لقد تجاوزت بيث الوعكة الصحية! تعانقت ميج وجو، وقبَّلت إحداهما الأخرى. شعرت الفتاتان بسعادة لا مثيل لها لشفاء شقيقتهما ولسماعهما صوت الأجراس الرنانة المعلنة وصول العربة التي تقل أمهما.

الفصل السادس عشر

خطاب سري

لم تبرح مارمي فراش بيث بعد عودتها ذلك الصباح. استطاعت ميج وجو أن تنعما بنوم هانئ بعد أن عادت أمهما إلى المنزل. كان اليوم التالي مشرقًا ويبعث على البهجة.

ذهب لوري لزيارة إيمي عند العمة مارش، كانت إيمي طيلة تلك الفترة تدعو بشفاء أختها. ساورتها الكثير من المخاوف، وعلى الرغم من ذلك حاولت مواجهة الموقف بشجاعة. كانت العمة مارش تحاول إلهاءها طوال الوقت، لكنها كانت تشعر بالحنين إلى المنزل، واشتاقت إلى العودة إلى دفء العائلة.

ابتسم لوري وهو يزف إليها الأنباء السارة. حاولت جاهدة إخفاء اشتياقها إلى العودة إلى المنزل ورؤية أمها. لكن بيث كانت لا تزال مريضةً، لذا لم يكن أمامها خيار سوى أن تجلس لكتابة رسالة إليهن.

في اللحظة التي كانت إيمي ستخط فيها الرسالة، فوجئت بحضور أمها إلى منزل العمة مارش ففرحت فرحًا شديدًا. جلست إيمي على ساق مارمي، وأخذت تحكي لها عن الصعوبات التي مرت بها، فقبَّلتها أمها. في ذلك اليوم قدَّمت العمة مارش خاتمًا فيروزي اللون لإيمي. سألت إيمي أمها هل باستطاعتها الاحتفاظ به.

أجابتها مارمي: «أعتقد أنك ما زلت صغيرة للغاية على ارتدائه.»

– «لكنني أود ارتداءه ليذكِّرني بأمر ما.»

– «ليذكرك بالعمة مارش؟»

هزت إيمي رأسها نافيةً: «كلا، ليذكِّرني بألا أكون أنانية.» واسترسلت لتوضيح قصدها: «إن أسوأ عيوبي الأنانية. بيث ليست أنانية ولذلك يحبها الجميع. أريد أن أكون فتاة أفضل، لكنني كثيرًا ما أنسى ذلك، غير أني أستطيع تحقيق ذلك إذا احتفظت بشيء يذكِّرني به.»

قالت مارمي: «حسنًا، افعلي ما بوسعك يا عزيزتي. وارتدي خاتمك، والآن علي أن أعود إلى بيث، وستعودين إلى المنزل قريبًا.»

في وقت لاحق مساء ذلك اليوم، تسللت جو إلى الطابق العلوي للتحدث مع أمها. فقد أصبح عبء السر الذي أخبرها به لوري ثقيلًا للغاية. أخبرت أمها بأمر فردة قفاز ميج. وبعد أن انتهت من إخبارها، سألتها أمها: «هل تعتقدين أن ميج تهتم بالسيد بروك؟»

أجابتها جو: «النجدة! لا أدري شيئًا عن الحب. وميج لا تتصرف كبطلات قصصي. فهي لا تصاب بإغماءات، وتتصرف بحكمة.»

– «إذن، أتعتقدين أنها ليست مهتمة بجون؟»

صاحت جو: «من؟»

– «أعني السيد بروك، فأنا أدعوه الآن جون، لأنه كان ودودًا للغاية معنا في المستشفى.»

تأوهت جو: «يا إلهي! أستزوجين ميج له لأنه كان ودودًا مع أبي.»

شرحت لها مارمي في هدوء أن جون بروك شاب جدير بالاحترام. وقد تحدث بالفعل مع السيد مارش فيما يتعلق بمشاعره تجاه ميج. وطلب إذن السيد مارش في أن يعمل بكد من أجلها، فهو يريد أن يصير شخصًا ناجحًا. على الرغم من أن السيد بروك كان رجلًا رائعًا، لم يرغب الأبوان في أن تُخطب ميج وهي لا تزال في السابعة عشرة من عمرها.

تذمَّرت جو: «ليتني أستطيع أن أتزوجها كي تبقى معنا في العائلة.»

ابتسمت مارمي، ثم طلبت من جو ألا تذكر شيئًا لميج، فهي تريد أولًا معرفة شعور ميج تجاه السيد بروك.

صاحت جو: «رحماك ربي! سينفطر قلبي إذا عاد السيد بروك ثريًّا ووقعت ميج في حبه.»

قالت مارمي: «عزيزتي جو، أود أن تتزوج بناتي وينتقلن إلى بيوتهن في الوقت المناسب. لكن ميج لا تزال صغيرة للغاية، ولا يزال هناك الكثير من الوقت أمام جون كي يوفر لها منزلًا.»

– «أليس من الأفضل لميج أن تتزوج رجلًا ثريًّا؟»

– «المال ضروري في الحياة، لكن الحب والفضيلة مهمَّان أيضًا. فالثراء والحب أفضل كثيرًا من الثراء دون الحب.»

حثَّت مارمي جو على أن تترك الأمور للزمن، والوقت كفيل بأن يحسم مسائل الحب والزواج تلك. استمعت جو جيدًا لكلام أمها، لكنها شعرت بحزن كبير عندما فكرت في فراق أختها.

أصبح السر حملًا ثقيلًا للغاية على قلب جو في اليوم التالي. لاحظت ميج ذلك التغير على أختها، ولكنها لم تقل شيئًا. فقد تعلمت من واقع خبرتها الطويلة مع جو أن أفضل الطرق لإرغام جو على الكلام ليس في طرح الأسئلة. ظلت جو هادئة، وتتصرف ببرود. أزعج ذلك الأمر ميج؛ الأمر الذي حمل جو على التمادي في إساءة التصرف.

هدأت مارمي ميج، وسرعان ما تجاهلت ميج جو المسكينة. أصبح لوري ملاذ جو الوحيد. كانت هناك مشكلة واحدة، علم لوري أنها تخفي عنه شيئًا وحاول جاهدًا معرفة ذلك السر الذي تخفيه. لم تخبره جو قط، لكنه خمَّن أن الأمر يتعلق بميج والسيد بروك، وفي النهاية قرر أن ينصب مكيدته.

على مدى بضعة أيام، كانت ميج في مزاج سيئ، وافترضت جو أسوأ السيناريوهات، وهو أن ميج قد وقعت في حب السيد بروك.

تأوهت جو أمام أمها: «ماذا سنفعل؟»

قالت مارمي: «لا شيء، سننتظر حتى يعود أبوك. وهو سيقرر كل شيء.»

وفي اليوم التالي وزعت جو الخطابات التي أحضرتها من مكتب البريد. كان بينها خطاب مغلق لميج التي أطلقت صرخة عندما فتحته.

سألتها مارمي: «ما الأمر؟»

صاحت ميج: «الأمر كله خطأ! إنه لم يرسله! جو، كيف يمكنك أن تفعلي ذلك الشيء؟»

قالت جو: «أنا لم أفعل شيئًا! عم تتحدث يا مارمي؟»

كانت عينا ميج يتطاير منهما الشرر وهي تخرج رسالة مجعدة من جيبها. ثم ألقتها في وجه جو وقالت: «لقد كتبت أنت ولوري تلك الرسالة. كيف يمكن أن تقدما على ذلك الفعل اللئيم؟»

كانت الرسالة خطاب حب من المفترض أن السيد بروك هو من أرسله.

صاحت جو: «يا إلهي! ذلك الوغد الصغير، إنه يَحْبِك خدعه لأنني لم أخبره بالسر.»

سألتها مارمي، التي كانت تعلم أن جو تحب المزاح، في حزم: «هل لك علاقة بذلك الأمر؟»

– «مطلقًا! أقسم على ذلك!»

استدارت مارمي إلى ميج، وقالت: «هل بعثت ردًّا على ذلك الخطاب؟»

احمرَّت وجنتا الفتاة الكبرى في خجل شديد، وقالت: «أجل!»

اعترفت ميج بالأمر كله، أعطى لوري خطابًا لميج، وردت عليه بخطاب مماثل للسيد بروك تخبره فيه بأنها صغيرة للغاية على الزواج. ثم استلمت خطابًا من السيد بروك يقول فيه إنه لم يبعث بالخطاب الأول، وأن جو تمزح معها. فشعرت ميج بالخزي الشديد.

تفحصت جو الخطابين بعناية، ثم صاحت: «إليكما الخدعة، لقد كتب لوري الخطابين، يا له من وغد!»

أرسلت مارمي جو لطلب لوري، كانت عازمة على وضع حد لمثل تلك التصرفات السخيفة. عندما ذهبت جو، أخبرت مارمي ميج بمشاعر السيد بروك تجاهها، ثم سألتها برفق: «ماذا عن مشاعرك تجاهه؟»

أجابتها ميج إنها لا تعرف حقًّا، فالموقف برمته ومسألة الخطابات تلك جعلاها تشعر بالذعر الشديد إلى حد يجعلها لا ترغب في أن تقع في حب أحد. ثم استجدت مارمي ألا تخبر السيد بروك بشيء، فهي تشعر بجرح غائر في كرامتها.

بعد أن أمضى لوري ومارمي وقتًا طويلًا في حجرة المكتب، استدعت مارمي جو وميج إلى الغرفة. بدا لوري خجلًا للغاية، فسامحته جو على الفور. اعتذر لوري كثيرًا، وأقسم على ألا يقدم على فعل شيء مماثل مرة أخرى.

سامح الجميع لوري، وسرعان ما نسين مزحته، باستثناء ميج الجميلة. كثيرًا ما كانت تساورها أفكار بشأن السيد بروك. وذات مرة عثرت جو على قصاصة ورقية كتبت عليها ميج: «السيد جون بروك.» أنّت جو في يأس وألقت بالورقة في نيران المدفأة. فمزحة لوري ربما تكون قد عجَّلت باليوم الذي ستغادر فيه ميج.

الفصل السابع عشر

توقعات سارَّة

مرت الأسابيع التي سبقت عيد الميلاد في سكينة. أرسل السيد مارش خطابًا يقول فيه إنه سيحضر في وقت مبكر من العام الجديد. كانت صحة بيث تتحسن يومًا بعد يوم، وعادت إيمي إلى المنزل، وانشغل كل من بالمنزل بالاستعداد لقضاء إجازة سعيدة.

حلَّ العيد وساد شعور طيب. أصبحت بيث قادرة على الوقوف بجانب النافذة، وأبدت إعجابها بالدمية الجليدية التي صنعتها جو ولوري من أجلها. وُزِّعت الهدايا، وبعثت البهجة في النفوس.

قالت بيث: «أنا سعيدة للغاية، ليت أبي كان بيننا.» اتفقت الفتيات معها في الرأي تمامًا.

أطل لوري اللعوب من باب حجرة المعيشة، وصاح: «هناك هدية أخرى لعائلة مارش!»

وفجأة ظهر أبوهن الحبيب. وعلى الفور التفت أذرع الفتيات المحبات حول أبيهن. تبادلوا الأحضان والقبلات والضحكات والقليل من دموع الفرح أيضًا.

كان عشاء عيد الميلاد مميزًا للغاية ذلك اليوم؛ طهت هانا ديكًا روميًّا كبيرًا وطري اللحم، وزينت مائدة الطعام بكافة أشكال الزينة. انضم السيد لورانس ولوري والسيد بروك إلى عائلة مارش على مائدة الطعام.

أشارت جو: «في نفس ذلك اليوم من العام السابق تذمرنا جميعًا من عيد الميلاد التعيس الذي أمضيناه.»

سألتها ميج وذهنها شارد في عيني السيد بروك الجميلتين: «على كل، لقد انتهى العام نهاية سعيدة، أليس كذلك؟»

ثم قالت إيمي: «لقد كان عامًا صعبًا للغاية أيضًا.»

علَّقت بيث وهي تنظر إلى أبيها: «أنا سعيدة للغاية لأنه انقضى، ولأنك بيننا الآن.»

ابتسم السيد مارش لبناته الجميلات، وهنأهن على سعيهن الجدي للتغلب على مساوئهن، ولأنهن كن طيبات ومراعيات لمشاعر الآخرين. والأهم من ذلك، أطرى عليهن للحب الذي تحمله كل منهن للأخرى، ولأنهن أصبحن «نساءه الصغيرات» حقًّا.

قبل أن تعزف بيث على البيانو، تذكرت أنها قرأت عن مرج أخضر جميل تتفتح فيه أزهار السوسن كل عام. سادت تلك الأجواء المرحة مع غناء الأناشيد والترانيم. كان الجو مفعمًا بالأصوات السعيدة والأمنيات الصادقة بقضاء عيد سعيد للجميع.

وفي اليوم التالي، أُهملت الأعمال المنزلية العادية، وذلك لاعتناء الأم وبناتها بالسيد مارش.

تذمَّرت جو عندما رأت المظلة التي نسيها السيد بروك. كانت ميج المسكينة شاردة الذهن وخجلة وصامتة، يحمر وجهها متى ذكر اسم جون، وأصبح الأمر حملًا ثقيلًا على السيد مارش وزوجته.

تبادلت ميج وجو حديثًا من القلب معًا، بعد أن شاهدتا من النافذة لوري وهو يترنح محاولًا التظاهر بأنه حبيب مجروح.

تساءلت جو: «ماذا ستقولين إذا طلب السيد بروك الزواج منك؟»

– «حسنًا، سأكون هادئة، وسأقول: «شكرًا لك يا سيد بروك، أنت طيب للغاية، لكنني ما زلت صغيرة على الزواج.»»

– ضحكت جو: «لا أظن أنك ستقولين هذا.»

– «بلى، سأقوله، وسأخرج من الغرفة ورأسي مرفوع.»

نهضت ميج لتمثل أمام جو الطريقة التي ستخرج بها من الغرفة، وإذا بها تصطدم فعليًّا بالسيد بروك. خرجت جو من الغرفة لتفسح المجال لشقيقتها لتقول ما تريد.

قال السيد بروك في هدوء: «مساء الخير، حضرت لآخذ مظلتي وكي أطمئن على حال والدك اليوم.»

قالت ميج: «هو في أحسن حال، إنه بالفراش. سوف أُحضره وأخبرها أنك هنا.» في غمرة توترها، اختلط عليها الأمر بين المظلة وأبيها!

«هل أنت خائفة مني يا مارجريت؟» بدا السيد بروك معذبًا للغاية حتى إن وجه ميج احمر خجلًا.

قالت: «كيف أخاف منك؟ لقد كنت طيبًا للغاية مع والدي، ليتني أستطيع شكرك على ذلك.»

«هل لي أن أخبرك بطريقة تشكرينني بها؟» ثم أمسك يدها الصغيرة بإحكام.

حاولت ميج جاهدة أن تسحب يدها، وقالت: «أوه، أرجوك لا تفعل ذلك.»

– «لا أود سوى أن أعرف هل تحملين في قلبك القليل من الحب تجاهي، لأنني أحمل لك الكثير والكثير من الحب.»

حان وقت التصرف بهدوء والنطق بالكلمات المناسبة. لكن ميج نسيت كل كلمة! وبدلًا من ذلك تلعثمت في الكلام: «أنا صغيرة للغاية على الزواج.» انزعجت ميج من افتراضه أنها ستوافق على الزواج منه، فجذبت يدها بعيدًا وقالت: «من فضلك ارحل الآن!»

عكس وجه السيد بروك المسكين ما كان بداخله من قلب جريح. «أهذا حقًّا ما تريدينه؟»

– «أجل، يرى أبي أنه لا ينبغي لي التفكير في تلك الأمور الآن، وأنا لا أنوي ذلك.»

– «هل من الممكن أن تغيري رأيك؟ سأنتظر إذا كنت في حاجة إلى مزيد من الوقت.»

لمعت عينا ميج، وتغيرت نبرة صوتها: «ليتك لم تفكر بي من الأساس!»

شحب وجه السيد بروك، وشعرت ميج بقلبها يرق، لكن العمة مارش وصلت إلى المنزل في تلك اللحظة. رأت ميج وبروك وسألت في غضب: «ماذا يحدث هنا؟»

غادر السيد بروك، وجلس في غرفة أخرى، وأجابتها ميج: «لا شيء، إنه صديق أبي حضر ليطمئن على حاله.» ثم حاولت استعادة رباطة جأشها، وقالت: «لقد فوجئت بحضورك يا عمتي.»

– «وجهك أحمر كالبنجر. أصرُّ على معرفة ماذا يحدث هنا.»

– «كنت أنا والسيد بروك نتحدث ليس إلا.»

قالت العمة مارش في نبرة استهزاء: «هذا إذن السيد بروك المعلم الخاص. لم توافقي على الزواج منه، أليس كذلك؟»

شعرت ميج بالغضب حينئذ: «صمتًا رجاءً، سيسمعك، سأخبر أمي بأنك حضرت.»

أصرت العمة مارش، وقالت: «انتظري دقيقة يا ابنتي، أريد أن أخبرك بشيء.» وقالت لها إنه واجب عليها أن تتزوج من رجل ثري وتنقذ عائلتها، ولا ينبغي لها أن تتزوج من رجل فقير بلا طموح.

شعرت ميج بالغضب من حديث عمتها الذي يحمل تقليلًا من شأن «حبيبها» جون، وامتدحت جون ووصفته بأنه رجل طيب وسخي، وقالت: «سأتزوج بمن أريد. جون ليس ثريًّا، لكنني أعلم أنني سأكون سعيدة معه لأنه يحبني!»

بعد أن وبَّختها العمة مارش، خرجت وصفعت الباب في وجه ميج، لم تدر ميج هل ينبغي أن تبكي أم تضحك. جاء جون إلى الرواق، بعد أن سمع الحديث الذي دار بين ميج وعمتها. قال بصوت خافت: «سنعيش في سعادة معًا يا ميج، أليس كذلك؟»

نظرت ميج إلى وجهه الوسيم الحنون، وقالت: «أجل يا جون.»

أمضى جون بقية الظهيرة في إقناع السيد مارش وزوجته بنواياه الحسنة. وسرعان ما وافقت العائلة بأكملها على الخطبة. حتى جو عدلت عن رأيها بعد أن رأت سعادة أختها بجون.

اجتمعت العائلة لتناول عشاء جميل للاحتفال بالخطبة. حضر لوري ومعه باقة جميلة من الورود، وأحضر السيد لورانس زجاجة خمر. وعند غروب الشمس جلسوا في حجرة المعيشة في سعادة، وتحمَّس الزوجان الشابان لخططهما المستقبلية. كانت السعادة التي شعر بها الجميع لا تضاهيها سعادة. جلست العائلة التي لُمَّ شملها في رضا حول المدفأة مع أصدقائهم الطيبين يحملون في قلوبهم آمالًا سارة للمستقبل.